ثـــــورة الزنـــج
غربي محمد ، المجلد الحـادي عشـر، العدد 3، ديسمبر 2020،
ص ص 286-300

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

ثـــــورة الزنـــج (255- 270 هـ/868- 883 م)

Negroes Revolution

محمد غربي (*)

جامعة سيدي بلعباس، الجزائر

Gherbi2@hotmail.fr

تاريخ الإيداع: 2019/08/24 تاريخ القبول: 2020/11/03 تاريخ النشر: 2020/12/31

الملخص:

لم تكن ثورة الزنج (255هـ/ 868م) هي الثورة الوحيدة التي قام بها هؤلاء، بل سبقتها حركات زنجية في فترات تاريخية. فقد خرجوا في عهد "مصعب بن عمير"، ونهبوا المحاصيل الزراعية في العراق، وعاثوا فسادا في مناطق عديدة محيطة بالبصرة. لكن الوالي "خالد بن عبد الله بن أسيد" قضى على تحركهم وصلب بعضهم، ولم تشر أي مصادر تاريخية إن كان لهذا التمرد أبعاد سياسية أو اجتماعية أو دينية متبلورة .عاود الزنج الكرّة في عهد "الحجاج بن يوسف الثقفي"، الذي كان منشغلا بتمرّد " عبد الله بن الجارود". فاتسع نشاطهم في عهد زعيمهم "شيرزنجي" الذي تلقّب بأمير المؤمنين (مما يدل على طموحه السياسي)، لكن أهل البصرة شاركوا الحجاج في قتل "شيرزنجي" وأتباعه، وتشتيت الباقين. وهكذا انتهت هذه الحركة دون أن تترك أثرا في المجتمع العربي آنذاك. وفي عهد "المنصور" (141هـ/758م) نهب الزنوج الفرات الأسفل والقرى وقتلوا بعض سكانها، لكن ثورتهم قُمعت بسرعة قبل أن يستفحل خطرها .الواقع أن الثورة الوحيدة التي قام بها الزنج، وحظيت باهتمام المؤرخين هي التي حدثت سنة 255هـ/868 م في العصر العباسي الثاني، حيث كانت السلطة ضعيفة يسيطر عليها القادة الأجانب من الترك، مما أدّى إلى استمرار هذه الثورة مدة طويلة من الزمن زادت عن أربع عشرة سنة.

الكلمات الدالة:

محمد بن علي; ثورة الزنج; العصر العباسي الثاني; الاقطاع; العبودية; التحرر.

Abstract:

(*) المؤلف المرسل: محمد غربي Gherbi2@hotmail.fr

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

The Negroes Revolution (255AH/868AD) was not the only Revolution they did, there were many more before. The Nigro's rebelled in the time of "Musab Ibn Omair" in Iraq.They rubbed agriculture crops and wreaked havoc in many areas around "Al Basra". But the governor "Khalid Bin Abdullah Bin Usaid" stopped their movement and killed some of them. And no historical sources has indicated that this movement has political, social or religious beliefs.
The Nigros tried to rebell again in the days of "Al-Hajjaj Bin Yusuf Al-Thaqafi", and they moved in the "Basra" while "Al-Hajjaj" was busy with "Abdu Allah bin Djaroud" ; who got named "Amir Al Mouminine" (which signified it political goals); but the people of "al Basra" helped "Al-Hajjaj" in killing "sherzangi" and separating the others; and that's how this movement ended without an effect in the Arabic comity .
In the days of the "Mansour" in 141(Islamic calendar)/758(C); the Nigros rubbed the lower "Al Forat" and the villages; they also killed some of the people; but this movement got put down quickly before its danger increased.In fact, it was the only revolution led by the Nigros, which has caught the attention of historians. The one happened in the year (255-270AH/868-883AD), in the second Abbasid period, where power was weak and controlled by Turkish foreign leaders. that led to the continuation of this revolution for a long period exceeding fourteen years.

Keywords: Muhammad Ibn Ali; Negroes Revolution; The second Abbasid Period; Feudalism; slavery; Liberation.

****

فسّر كثير من المستشرقين تاريخنا العربي – الإسلامي تفسيرا عنصريا يقوم على صراع الشعوب داخل المجتمع الإسلامي الوسيط، وإن كان هذا التفسير العنصري لا يقوم على أسس تاريخية موضوعية للأحداث. ومع ذلك لازال كثير من مؤرخينا يعتمد كليا على هذه التفاسير. الاستشراقية دون تمحيص . التي رُوّج لها على أنها ثورات وحركات "تحررية" للمظلومين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ضد التسلط العربي، والأرستقراطية العربية مالكة الرقيق. ووصفها بعضهم بأنها ظاهرة "التمييز" بين العرب والموالي في الدولة الإسلامية، جاءت لتناضل من أجل العدالة والمساواة وشيوعية الأموال. وفي محاولتنا هاته، نأمل تصحيح الصورة المشوّهة التي رسمها هؤلاء الكتّاب، دون أن نرسم صورة مثالية مصطنعة لمجتمعنا العربي الإسلامي، وإن كنا نقرّ بأن هذا المجتمع لم يتبع سياسة التمييز العنصري التي اتبعتها كيانات أخرى قديما وحديثا.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

إن التاريخ العربي حافل بشواهد المرونة، جعلت بعض أبناء الأقليات يصلون إلى منصب الوزارة، وجعلت "الجاحظ" يكتب مقالة مطولة في "فخر السودان على البيضان". ولمناقشة هذا الموضوع طرحنا الإشكالية التالية: ما حقيقة شخصية صاحب الزنج؟ وماهي عقيدة حركته؟ وهل هي حركة دينية أم سياسة أم اقتصادية أم اجتماعية؟ وهل كانت فعلا حركة ضد الاستغلال والتعسّف؟

صاحب الزنج

يطلق على "علي بن محمد" صاحب الزنج[1]، وهو شخصية محيرة، يلاقي الباحث صعوبة كبيرة في معرفة نسبه، وقد لخص "ابن أبي الحديد" ذلك بقوله: "إن صاحبنا غيّر نسبه تبعا للظروف، فزعم الانتماء إلى "عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب" مرة، وإلى "يحيى بن زيد" مرة أخرى، وإلى "العباس بن علي بن أبي طالب" مرة ثالثة"[2] . لذلك سمي "دعي آل أبي طالب". ولعلّ ادعاءه النسب العلوي[3] أو الولاء للقضية العلوية كان تكتيكا ناجحا ووسيلة استعملها لاستقطاب بقية المذاهب ومختلف الجماعات المعارضة والمتذمرة. في حين تؤكد مصادر أخرى نسبه الفارسي من "الطالقان"[4]. وتنسبه روايات إلى قبيلة عبد قيس، وعلى ذلك قد يكون "علي بن محمد" عربيا من عبد القيس التي استوطنت البحرين خاصة وأنه تواجد بها فترة من الزمن[5]. ومن المهم أن نذكر أن "علي بن محمد" لم يكن زنجيا أسودا، ولم يكن من العبيد، بل كان رجلا أبيض. بمعنى أنه لم يكن من طبقة الزنج بل من جنس آخر.

اتخذ لقب "المهدي" ولُقب بـ "إمام" في الأعياد والمناسبات[6]، فتكاثر أنصاره يوما بعد يوم، وبنى لهم المدن الحصينة البعيدة عن حواضر العراق المعروفة. وكان يلقي عليهم الخطب الحماسية التي تدعوهم إلى الدفاع عن حريتهم وحقوقهم المسلوبة، ومنّهم بالتحرير واستمتاعهم بالأموال التي يغنموها إذا قاتلوا في سبيل الدعوة. فنجح في تكوين جيش نظامي كبير، مكنه من الاستيلاء على كثير من مدن العراق وخوزستان والبحرين الذين . أهل البحرين . أحله بمحل النبي، وتعالت أصوات الاستغاثة من أصحاب الأراضي وأسياد العبيد الذين أتوا إليه يطلبون استرداد عبيدهم الفارين مقابل خمسة دنانير لكل عبد. فقبض على هؤلاء الإقطاعيين، وسمح للعبيد المرتزقة بأن يضرب كل عبد سيّده القديم خمسمائة سوط[7].

بعث الخليفة المهتدي (255–256 هـ) جيشا بزعامة أحد أمرائه الأتراك، لكنه فشل في إخماد الثورة. وأعاد الخليفة المعتمد (256م–279 هـ) المحاولة، فانتصر صاحب الزنج، وقتل القائد التركي، واستولى الزنج على مدينة الإبلّة "على نهر دجلة" على مقربة من الخليج، وعلى

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

الأهواز "قاعدة بلاد خوزستان" و"عبادان" على الضفة الغربية لنهر دجلة و"واسط"، واضطر أهالي البصرة إلى الفرار إلى المدن البعيدة.

بدأ الزنج يستعدّون للسيطرة على بغداد عاصمة العباسيين، فاستنجد المعتمد بأخيه "أبي أحمد الموفق" الذي تمكّن من هزم جيش الزنج، فطردهم من الأهواز، ثم حاصر مدينتهم "المختارة" وقطع عليهم التموين والأقوات، فاستسلم بعضهم، ووعد الباقين بالعفو وحسن المعاملة إذا تخلّوا عن زعيمهم الذي ألقي عيه القبض وقتل سنة 270 هـ.[8]كان "علي بن محمد" على قدر كبير من الدهاء والدراية بأخلاقيات وأدبيات أقوام عصره، إذ قال لأصحابه محرضا على الهجوم على البصرة: "دعوت الله على أهل البصرة، فخوطبت إنما أهل البصرة خبزة لك نأكلها من جوانبها. فإذا انكسر نصف الرغيف خرّبت، فأوّلت الرغيف القمر، وانكساره انكسافه. ورفعت البصرة لي بين السماء والأرض، ورأيت أهلها يقتلون ورأيت الملائكة تقاتل معي وتثبّت جيوشي"[9]، كما كان بحاجة إلى سند شرعي. لذلك ادعى بأنه مبعوث العناية الإلهية، أرسلته لإنقاذهم من الظلم والتعذيب، وأدرك جهل هؤلاء الزنوج، فادعى العلم بالغيب "وزعم لهم أنه يعلم ما في ضمائرهم وانّ الله يطلعه على ذلك"[10]. وأنه لا يريد أن يتعرض لأموال الناس، وإنما يريد أموال السلطان لأن "الخلفاء والولاة ظالمون ينتهكون حرمة الله". وانتحل النبوّة، ليضفي على نفسه صفة التقديس والمهابة فقال لأصحابه "إني أحفظ سورا من القرآن في ساعة واحدة جرى بها لساني من غير أن يحفّظها لي أحد"[11].

في اعتقادنا، إن صاحب الزنج كان أكثر ذكاء وإدراكا لطبيعة عصره، وتفهّمه للظروف، واستغلالها للحصول على الزعامة السياسية. فإذا كان القادة الأتراك يسيطرون على "بغداد" و"سامراء" وما حولهما، و"يعقوب بن الليث" الصفار، يتحكم في خراسان ويوسّع نفوذه في غربي "إيران"، والقرامطة يتوسعون في أقاليم "الخليج العربي" وغربي "الفرات" و"بادية الشام"، و"أحمد بن طولون" يستولي على "مصر" و"الشام"، والأدارسة في "المغرب"، والعلويين في "طبرستان"، فلماذا لا يتحكم "علي بن محمد" بـ "العراق الجنوبي" خاصة وأن الخلافة في شغل شاغل عنه.

أسباب قيام ثورة الزنج

1 . **النفوذ الأجنبي**: لا شك أن النفوذ الأجنبي، هو العامل الأول في ظهور الفساد الاجتماعي والانحلال الاقتصادي. لهذا فأي ثورة ضد هذه المساوئ هي في جوهرها موجهة ضد السيادة الأجنبية التي تعد مصدر هذه المساوئ والمظالم.اعتاد المؤرخون على تقسيم العصر العباسي إلى

ثـــــورة الزنـــج
غربي محمد ، المجلد الحـادي عشـر، العدد 3، ديسمبر 2020،
ص ص 286-300
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

عصرين متميزين: العصر الأول الذي استغرق مائة سنة (132–232هـ)، وهو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل. حيث ازدهرت فيه الفنون الإسلامية، ونقلت العلوم الأجنبية، ونضج العقل الذي وجد مجالا للبحث والتفكير، وظهر خلفاء ذوي قوة ونفوذ. فاستقرت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية. أما العصر الثاني فيبدأ من سنة 232هـ، ويستمر إلى سقوط الدولة العباسية بعد اجتياح "هولاكو" والمغول سنة 656هـ[12].

قامت ثورة الزنج في بداية العصر العباسي الثاني الذي شهد ضعف الخلافة العباسية وتفسخ المجال الإداري والسياسي في العاصمة، والذي يطلق عليه "عصر نفوذ الأتراك" الذين أصبحوا يختارون للخلافة أضعف أبناء البيت العباسي، وسيطروا على الموارد الاقتصادية، وامتلكوا ضيعات واسعة وسخروا الرقيق لخدمتهم، وحرموهم من أدنى حقوقهم الإنسانية نتيجة ظهور الطبقية في المجتمع. فظل هؤلاء يترقبون الفرصة المواتية لإعلان تحررهم.

2 . **نظام الإقطاع والرق**: كانت بلاد العراق مركزا لثورة الزنج، وهم عبيد الأرض، إذ اشتهرت هذه البلاد بالأراضي الخصبة التي أطلق عليها أراضي السواد وأقطعها الخلفاء العباسيون لوزرائهم ورجالهم من الأتراك وغيرهم. فظهرت الملكيات الكبيرة، واحتاج هؤلاء الإقطاعيون إلى أعداد كبيرة من العبيد – معظمهم من الزنوج لما اشتهروا به من قوّة أبدانهم ورخص أثمانهم – لفلاحة الأرض بالسخرة دون أجر يتقاضونه. فكان طعامُهم قليل من الخبز والتمر السويق. وسخّر الإقطاعيون هؤلاء العبيد في إزالة الطبقة المالحة التي تغطّي الأراضي الزراعية، وهي طبقة سميكة. جاء في كتاب "العيون": "كانت كسوح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال، وكان في أنهار البصرة عشرات الألوف يعذّبون بهذه الخدمة"[13].

عقيدة الحركة وطبيعتها

1 . **عقيدة الحركة**: انتشرت دعوة صاحب الزنج بعد هروب معظم العبيد من أسيادهم، وقدموا إليه في البصرة، والتفّوا حوله ليقودهم إلى الخلاص والنصر، ونادى بأن ساعة نهاية الرق والعبودية (التحرر الاجتماعي) قد حانت، مستشهدا بالآية الكريمة:(إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ)[14]. وفسر هذه الآيات تفسيرا سياسيا، فقال

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

إن المؤمنين، وقد اشتروا أنفسهم، لم يعودوا بعد عرضة للرق والعبودية. لذلك دعا إلى استلاب حرية الآخرين، وتحرير العبيد بأي وسيلة كانت ووفق الشريعة الإسلامية، وتحسين أحوالهم ومعاملتهم كما أمر الله ورسوله بالرفق وبالحسنى. لكنه تخبّط في شعاراته ومبادئه، فرغم انتحاله العلوية، لم يستقر على الزيدية أو الإمامية، بل إنه لم يدع إلى خلافة علوية، ولا تبنّى آراء شيعية، بل دعا إلى آراء أقرب ما تكون إلى آراء الخوارج التي تتّصف بالديمقراطية والجمهورية[15]، وترفض كل تمييز قومي. ورفع شعار "لا حكم إلا لله" والآية الكريمة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[16]،والحديث الشريف "شرّ الناس من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده"[17] ودعا إلى تطبيق أحكام الإسلام، والعقاب البدني. وهكذا عادت مبادئ الخوارج إلى الظهور مرة ثانية في العصر العباسي الثاني، فاعتنق الزنوج مبادئها السياسية والدينية، وأصبحت دستورا لثورتهم.

2 . **مبادئها السياسية:** تمحورت مبادئهم السياسية حول الخلافة، فهم يعارضون استئثار قريش بها، ويرون أن تُعقد . الخلافة . لأفضل أبناء الأمّة الإسلامية عن طريق الاختيار المطلق من كل قيد، بل ذهبوا إلى أنّ "عبدا حبشيا" لا يقل أهلية للخلافة واستعدادا عن سليل أعظم القبائل حسبا ونسبا، فهم لم يعودوا ينظرون إلى قريش والأسرة العباسية من قريش، نظرة تقديس، لأنهم رغبوا في رئيس من دمائهم حتى يستطيعوا طاعته، واعتبروا " الإمامة في قريش" حديثا موضوعا.

أما موقفه من الخلافة، فكان على النقيض من موقف الشيعة العلوية، التي تؤكّد على الوراثة، ولا تخلو من التعقيد الذي ينفر منه الزنوج والأعراب البسطاء، وينكره عرب البصرة والأهواز وواسط والمناطق المحيطة بها. إذ اعتبر صاحب الزنج الخلافة مؤسسة يتقلدها أفضل المسلمين بغض النظر عن أصله. وأن الخليفة مرغم على قبولها، ولا يحق له النزول عنها، وإذا غيّر سيرته وحاد عن الحق، وجب عزله أو قتله. وإذا لم تمكنهم الظروف من تحقيق الأسس التي وضعوها لاختيار الخليفة، فلا مانع من الاستغناء عن الحكومة وعن الخلافة[18] لأن الناس يتكاثفون باحتياج بعضهم إلى بعض، وفي ذلك ما يكفي لردهم عن الظلم وصدّهم عن الجور وعدم الإنصاف.إن هذا التناقض في عقيدة الحركة بين العلوية والخارجية، أفرغها من كل صفة عقائدية، وجعلها حركة مسلحة ضد السلطة العباسية ليس إلاّ.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

3 . **آراؤها الدينية**: رأوا في أنفسهم الفئة المسلمة المؤمنة حقّا، وأن عليهم جهاد سواهم من المسلمين، وردهم إلى حظيرة الدين. فوضعوا برنامجا على أساس العودة إلى مبادئ الإسلام الأولى التي تدعو إلى "الإخاء" و"المساواة" بين العرب والموالي والأرقاء (فقط بين الجماعة التي اتبعت "محمد بن علي") التي انعدمت في العصر العباسي، واعتبروا من يقترف الكبيرة مرتدا وبالتالي كافرا، لذلك أباحوا دمه وممتلكاته، ووجب نبذه خارج الجماعة الإسلامية[19].

علّق بعض المؤرخين أمثال " نولدكيه"[20] على مبادئ صاحب الزنج بقولهم بأن معرفة هذا الزعيم الثائر بميول أصحابه، جعلته يتظاهر بالدعوة إلى مذهب الخوارج التي وصفها بعض المؤرخين المحدثين، بـ "جمهوريي الإسلام"، والمعبرين عن الاتجاه الديمقراطي بين الفرق الإسلامية. ووصفهم البعض الآخر بـ "بيورتان الإسلام" لتمسكهم الشديد بأهداب الدين، والتزامهم بالقرآن والسنة ودعوتهم لإتباع نهج السلف الصالح. ونعتهم آخرون بـ "ثوريي الإسلام" لحضهم على الثورة على أئمة الجور وقولهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهناك من سماهم بـ "بولشفيك الإسلام" لتطرفهم في الدفاع عن عقيدتهم وقولهم باستحلال دماء مخالفيهم حتى ولو كانوا من المسلمين.

4 . **برنامج حركة**: يذهب الكثير من المؤرخين بأن الحركة لم يكن لها برنامج، ولا سياسة تجاه الجماهير، ولم تحقق أي إنجاز، اللهم إلاّ إذا اعتبرنا الأمور التالية إنجازات تستحق الذكر:

1 . حرق البصرة ونهبها حيث دخلها يوم 14 شوال سنة 257هـ وقت صلاة الجمعة، فقتل وأحرق الزرع والكلأ، فكانت النار تحرق ما وجدت كل شيء من الإنسان والحيوان والزروع والبيوت. ثم عاد يوم الاثنين ونادى أهل البصرة بأمان، فأمّنهم، ولما ظهر الناس قتل من فيها من الرجال والعلماء والأعيان، وهرب والي المدينة ومن معه وتركوا أهلها لمصيرهم المحتوم. وأحرق الجامع ومن فيه، فعمّ الحريق الناس والدواب والمتاع وغير ذلك. واستخرج الأموال من أربابها وقتل الفقراء[21].

2 . حريق واسط: دخلته سراياه سنة 264 هـ وقتلوا من بها وأحرقوها، واستولى على نواحيها.

3 . حريق الأبلّة: أضرموا فيها النار فاحترقت بأجمعها، فقتل خلقا كثيرا وغرق خلق كثير وحوى الأسلاب.

4 . يوم الشدا: يوم خلّد فيه شعراء البصرة بربرية صاحب الزنج، فبعد أن قتل الناس، "جمع رؤوس القتلى وملأ بها سفنا وأخرجها من النهر المعروف بأم حبيب، وأطلقها فوافت البصرة... فجعل الناس يأتون تلك الرؤوس فيأخذ كل رجل أولياءه.

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

5 . سبي النساء: يقول الطبري في تاريخه: "سبى الزنج من نساء واسط وصبيانهم وما اتصل من القرى ونواحي الكوفة، زهاء عشرة آلاف"[22].

6 . الهجوم على القرى وتدميرها: عاث فسادا بالقرى، فخرّب القنوات وأتلف المحاصيل. وتذكر الروايات التاريخية أن الزنج قتلوا غالبية أهل "قرية الجعفرية" في البصرة، وأسروا الأحياء، ونهبوا "قرية القادسية"، وانشغلوا بعدها بشرب الخمور التي وجدوها هناك. ولذلك هجر العديد من سكان القرى قراهم بسبب الرعب وقلّة الغذاء.

7 . العنف المسلح: يتفق المؤرخون أن صاحب الزنج، وضع السيف في رقاب الناس وأسر نساءهم وسبى أطفالهم. فقد قدّر "السيوطي" عدد قتلى الزنج بمليون ونصف مليون[23]، بينما قدرهم "ابن طباطبا" بمليونين[24] وأن نصيب البصرة وحدها كان 300 ألف شخص[25]، وحصل كل زنجي وحليف للزنوج على عشرة أرقاء، هذا وقد وراح ضحية هذا العنف المسلح كثير من الأموال والأرواح والجهود. وتكررت هذه العملية في كثير من المناطق.

برّر بعض الباحثين عنفها المسلح:

. كونها تكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية خلال القرن الثالث الهجري في الدولة العباسية[26] . ارتبطت بالطبقات الكادحة ضد النظام الإقطاعي والاستغلال والتعسف، والظلم والطغيان والرق والعبودية، كونها إحدى حركات الطامعين والغاضبين[27]، التي لا يميل أصحابها إلى الانتقام والتنكيل إلاّ بعد الاضطرار.

. أصحابها ثوريون يمارسون العنف المسلح للدفاع عن قضيتهم، وكان من الممكن أن يطول عمرها لولا اعتمادها على:

أ) سفك الدماء والتصرفات البعيدة عن الحكمة والعقل والمنطق. حيث استولى بعض الزنوج على سفن كانت تحمل الحجاج، وأسروا بعض الأحرار العرب وباعوهم كما كان يباع العبيد سابقا.

ب) افتقارها إلى زعامة رشيدة، حيث ادعى زعيمها "علي بن محمد" النبوة وعلم الغيب، وأباح قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم، واعتبر مرتكب الكبيرة كافرا، ونادى بآراء الخوارج التي لم تكن ترضي الكثير من المسلمين. إذ كان يسب الصحابة من على المنبر أمثال عثمان وعلي ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة، ويزعم أنهم مخلّدون في النار رغم ادعائه الانتساب إلى علي ان أبي طالب[28]. لذلك لم تكن هذه الثورة خروجا على الطبقة الحاكمة فقط، بل خروجا

ثـــــورة الزنـــج
غربي محمد ، المجلد الحـادي عشـر، العدد 3، ديسمبر 2020،
ص ص 286-300
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

على الدين الرسمي. لذلك نظر إليها الأتقياء والمتدينون نظرة سخط ورموها بالزندقة ومخالفة الدين. فتطوع آلاف الناس لحربها من العراق وفارس والبحرين[29].

ت) كانت ثورة طبقية ضيقة وليست ثورة شعبية، وبالتالي فإنها لم تنطو على برنامج دقيق وأسس فكرية ثابتة تضمن لها البقاء والانتشار السريع والواسع. كما كان بقاؤها رهينة بصاحبها وضعف الدولة العباسية، حيث عانى الرقيق من المظالم والإجحاف والاضطهاد. فالخليفة العباسي محجور عليه من طرف الأتراك الذين أصبح همهم تولي المناصب والترف وجمع الأموال. وهي استمرارية للمنافسة بين إسلام يطالب بالشرعية ويستغلّ ازدياد التذمّر (نزعة الاستقلال الذاتي في الأقاليم) وبين إسلام رسمي. لذلك يذهب "البلاذري" بأن الزنوج حاولوا الحصول على قسط أكبر من الحرية، لما أضرّ بهم الجوع والفقر[30].

. أن أخبار صاحب الزنج وردتنا عن طريق خصومه من المؤرخين الرواد أمثال "الطبري"[31].

8 . لم يشر صاحب الزنج في أي من خطبه، عزمه إلغاء الرّق أو نظام العبودية والاستغلال، بل عامل أسرى الحرب معاملة الرقيق، وبذلك أقرّ "الرّق" ووعد أتباعه برفعهم إلى السلطة والثراء وتمليكهم العبيد والأراضي والنساء والأموال ويبلغ بهم أعلى الأمور[32]. وبذلك حوّل الزنج من عبيد إلى ملاّكين للرقيق، أي خلق فئة مستغلة تحلّ محلّ الفئة القديمة.

إن البربرية التي اتصف بها "محمد بن علي"، جعلت المؤرخين يضعونه في صفّ الخوارج "الأزارقة" الذين اشتهروا بكثرة التقتيل والتنكيل. بينما شبّهها نظام الملك بـ "المزدكية"[33]. وهذا ما حدّ من حركته، وحصرها في فئة من الزنج، وأبعد عنه الفئات الأخرى التي ساندته، وجعلت أهل البصرة يتحدون ضده رغم انقساماتهم، وجعلت أهل القرى الذين أعانوه في البداية ينقلبون ضده.

علاقة الزنج بالقرامطة والعرب

1 . علاقة الزنج بالقرامطة: سعى "محمد بن علي" إلى مخالفة القرامطة، خاصة وأن الثورتين قامتا في وقت متقارب، وقد أشارت روايات تاريخية إلى وجود جماعة من القرامطة في صفوف صاحب الزنج، وأن "حمدان قرمط" نفسه اجتمع بصاحب الزن حوالي سنة 873م، وعرض عليه تنسيق الجهود، لكن الطموحات الشخصية والتنافس على الزعامة، والاختلاف المذهبي أفشل التحالف بينهما رغم ما قد يفيدهما. حيث ان الزنوج يدينون بمبادئ "الخوارج"، والقرامطة يؤمنون بعقيدة الشيعة "الإسماعيلية"، إضافة إلى أن "محمد بن علي" زعيم العبيد، حال دون ذلك، رغم تشابه بعض المبادئ والأهداف في كل من الثورتين[34].

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

2 . **العرب وحركة الزنج:** إن الدعامة الرئيسية في حركة الزنج، كانت من العرب، من "المهالبة" و"الهمدانيين" الذين اعتبروا القوة الضاربة بين جماعة صاحب الزنج، ولولاهم لما طالت هذه الحركة، إضافة إلى أهل القرى والعرب – البدو - الضعفاء والعشائر العربية المتمردة على السلطة (إما خوفا من انتقام صاحب الزنج، أو بسبب إسقاطهم من ديوان العطاء، أو طمعا في الأموال والغنائم). وكان يدير عملياته العسكرية أربعة من شيوخ العرب وهم: "علي بن أبان المهلّبي" و"إبراهيم بن جعفر الهمداني" و "يحيى بن محمد البحراني" و"محمد بن الحارث القبي". وكان هؤلاء لا يقودون زنوجا بل أفرادا من قبائلهم وعشائرهم المتمرسين على الحرب والقتال. انضم إليه "آل باهلة" في البطائح سنة 266هـ، وساعده الأعراب في الهجوم على البصرة وخاصة بعد نهبهم كسوة الكعبة[35] كما ساعده سكان العديد من القرى في سهول الفرات، وأمدوه بالقوت خوفا أو طمعا أو تحاشيا من الخطر. لكن هل هذا يجعل من ثورة الزنج "ثورة عربية"؟:

1 . وقفت ضدها قبيلتا "البلالية" و"السعدية"، وهما من أهم قبائل البصرة كما وقفت ضدها غالبية قبائل "باهلة" و"آل المهلّب" و"ضبيعة" و"عجل" و"تميم" و"أسد" وغيرها.

2 . ماذا يعني استباحة قبائل عربية منها "الأبلّة" و"واسط" وقرى وسهول "الفرات" و"الأهواز" التي نُهبت، وخُربت، وأُحرقت، وقُتل من رأوه بها. و"البصرة" التي أُشعلت النار فيها، فهرب قسم من سكانها إلى البلدان المجاورة، وداهم أصحاب الزنج المسجد وقتلوا من فيه، ثم اقتحموا المنازل وقتلوا الأطفال وسبوا النساء. ومن شدة الجوع، أكل من بقي منهم حيا الكلاب والفئران[36]. استغل "محمد بن علي" الانقسام الذي كان بالبصرة بين الفئتين المتناحرتين "الربعيين" الشيعة و"السعديين" السنة، وحاول استمالة إحداهما لكن أهلها أدركوا بعد حين خطره، فاتحدوا لمجابهته. وكان يدرك بأنه لا يستطيع احتلالها بصفة دائمة لذلك كان يسلب ثم ينسحب بسرعة.

هل كانت الحركة "حركة عبيد" ضد الاستغلال والتعسف؟

حقا، لقد انضم إليه عبيد وزنج، وصدقوا إغراءات "محمد بن علي". وبعضهم كان ممن أُسِرَ أثناء الغارات على المدن والقرى، ولكن ذلك لا يجعلها . في نظرنا . "ثورة عبيد". ففي الثورات الحقيقية تلتحم القيادة والقاعدة في نضال موحد من أجل تحقيق تغييرات جذرية عميقة في بنية المجتمع، لكن الملاحظ أن حركة الزنج كانت تضم في بداية الأمر طائفة من رعاع الناس العوام المتكونة من اللصوص وقطاع الطرق والهاربين من السجون والمطاردين، والعمال

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

وأصحاب الحرف; وفئات المجتمع الفقيرة. انضمت إليها فئات أخرى متمردة مثل "الجند الترك"، و"السودان"، و"الأكراد"، و"أهل القرى" و"الأعراب الذين كانوا يسكنون في وادي البصرة وكان أكثرهم ممن كان الخليفة "المعتصم بالله" قد أخرجهم من ديوان الجيش واستبدلهم بالجند الأتراك[37]، و"اليهود" حيث يذكر أن رجلا يهوديا من "خيبر" يدعى ""ماندويه"، جاء إلى صاحب الزنج. فقبَّل يده، وسجد له، وعرض عليه الدخول في طاعته[38] (مما يدل على عمومية الثورة وعدم اقتصارها على الزنوج فقط). كما كانت تفتقر إلى التنظيم والايدولوجيا، وارتكز قادتها على عصبيات ضيقة انتهت بالتدمير والخراب والتقتيل والتهجير للسكان. وهذا ما يؤكده "فاروق عمر" حين يقول: "بأنها لا تُصوّر حقيقة الثورة وواقعها، بل هي ثورة على نظام الإقطاع، وعلى ملكية العناصر الأجنبية التي نجحت في الوصول إلى مراكز السلطة في الدولة الإسلامية. وجعلت هؤلاء الفلاحين يعملون بالسخرة، في ظروف صحية اجتماعية قاسية، ومحرومين من حقوقهم المشروعة"[39].

هل هي فرقة إسلامية؟

لم يذكر كتّاب الفِرَق المتعدّدين، أنّ الزنج كوّنوا فرقة إسلامية، بل ولم يعدّوهم فرعا من فرقة. وكل الذي قاله "المسعودي"، أن شبّهها بفرقة "الأزارقة" لكثرة التقتيل والتنكيل الذي ارتكبته في حق المخالفين لأفكارها دون تمييز، أما "نظام الملك" فقد شبهها بـ "المزدكية"[40]. وقد أضفى بعض المؤرخين الكثير من النعوت على حركة الزنج، رغم قلة النصوص المتعلقة بأبعادها وأهدافها. فصوّروها بصور بعيدة عنها، مبالغين في برنامجها المبني على "العنف المسلح"، وارتباطها بـ "الطبقات الكادحة"، وعمق "الحس الطبقي" لدى قائدها. مُهْمِلين كل المصادر العربية التي أجمعت – على اختلاف مشاربها - عكس ما ذهبوا إليه في تفسيرهم لهذه الحركة.

في قراءة حديثة للمؤرخين المعاصرين، وضعوا صاحب الزنج في مقام يمنحه صفات القائد المحنك، بفضل التنظيم الكبير والمحكم الذي قام به لإنجاح ثورته لمدة "أربعة عشر سنة" بفضل شخصية "علي بن محمد" القوية: الذي دعا ومنّى الزّنوج الذين كانوا يكسحون السباخ من جهة "البصرة" بالوعود، ولقب نفسه "أمير المؤمنين"، وعين على رأس دولته قادة مُخلصين ومُحنكين وقفوا إلى جانبه أمثال: "علي بن أبان المهلبي"" الذي وصل إلى مركز مرموق في دولة الزنج حتى ولاه "علي بن محمد" أكثر أعماله، و"سليمان بن جامع" من أهل هجر الذي صاحب الزنج وشهد الحروب معه إلى أن صُلب في النهاية. وغلاما "يحي بن عبد الرحمان بن خاقان"

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

"مشرق" و"رفيق"، و"محمد" و"الخليل" شقيقا "علي بن أبان" الذي كان من عِلْية أصحاب "علي بن محمد". و"يحي بن محمد الأزرق" المعروف بالبحراني، وهو من أهل الأحساء بالبحرين[41].

. دراية الزّنج بميدان القتال، وحصانة "المختارة" العاصمة الإدارية والاقتصادية والعسكرية التي كانت محاطة بالأنهار والأشجار المتشابكة والطرق الصعبة، مما جعلها قلعة حربية صمدت في وجه الغارات التي كان يشنها العباسيون والأتراك. حتى أن "أحمد الموفق" تعجب من هذا التحصين وأدوات الحصار التي جُهزت بها أسوار المدينة من مجانيق وسائر الآلات الأخرى[42].

. تشييد القناطير والجسور على الأنهار، والقصور في "المختارة". فإلى جانب قصره، نجد دار ابنه، ودُورٍ قواد الزنج الكبار أمثال "الجبائي" و"ابن سمعان" و"سليمان بن جامع".

. اهتمام "محمد علي" بتوفير المؤن والأقوات لعاصمته ولجيشه الضخم، حيث شيد أسواقا كثيرة في "المختارة" كالسوق "المباركة". وعين "أحمد بن الجنيد" للإشراف على نقل التموين، واسْتَمَال الأعراب وسخرهم في جلب المؤن إلى معسكره ومنعها عن المعسكر العباسي[43]. وكتب على أحد وجوه الدينار الذي ضربه باسمه في عاصمته، عبارة "محمد بن أمير المؤمنين"، مما يشير إلى وجود دار لضرب النقود، وإعلان استقلاله عن الدولة العباسية.

. لم يستسلم قادة الزنج إلا بعد أن وعدهم القائد "الموفق" بتحسين أوضاعهم. فتولّى الكثير منهم المناصب الكبرى مثل "مؤنس الخادم" قائد الجيش بالعراق، و"سبكتكين" حاكم بلاد الأفغان، و"طولون" والد "أحمد بن طولون" بمصر.

. مهدت التربة لبقية الحركات المُعارِضة في العالم الإسلامي، لخوض المواجهة ضد النظام القائم خلال القرن الرابع هجري[1].

آثار ثورة الزنج على الخلافة العباسية

إن أخفقت ثورة الزنج عسكريا، فقد خلفت تأثيرات سيئة، وضررا اقتصاديا في الخلافة الإسلامية، تمثل في:

1 1) الزّراعة: اشتهر جنوبي العراق بالمحاصيل الزراعية الوفيرة، كالقمح والشعير والأرز. و"البصرة" بالتمور والخضر والأسماك والقطن والخزّ، وكانت "واسط" من أهم مناطق زراعة النخيل والأشجار المثمرة. لكن ثورة الزنج شلت الزراعة في أرض لا تنقطع عنها المياه، وعطلت

ثـــــورة الزنـــج
غربي محمد ، المجلد الحـادي عشـر، العدد 3، ديسمبر 2020،
ص ص 286-300
E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

الضياع لسنين كثيرة. فارتفعت أسعار الحنطة في بغداد، وأثر سقوط "البصرة" و"ميناء الابلة" المهم في الحركة التجارية للدولة العباسية، على موارد البيت العباسي.

22) **التجارة:** عطلت حركة الزّنج الحياة الاقتصادية في جزء خصب ونشيط من الدولة العباسية، وشُلت التجارة البرية والمواصلات النهرية، وبارت التجارة، وخسرت الخلافة الأموال الطائلة المتأتية من الضرائب[44] وأخيرا، لم تنته حركة الزنج بقتل "محمد بن علي" (في صفر 270 هـ/883م بعد ثورة دامت أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام) والطواف برأسه في المدن والأمصار[45]، وإيداع ابنه "إنكلاي" وجماعة من أصحابه السجن مدة من الزمن بعد استسلامهم. لكن اتصالاتهم السرية ونشاطهم السياسي – انضم بعضهم إلى قرامطة العراق وبعضهم الآخر إلى قرامطة البحرين - استمرّ بعد اعتقالهم، ولم ينقطع حتى حَدَثَ تمرد جديد قام به الزنج في "واسط" بعد إخماد ثورة الزنج بسنتين. ورفع الزنج شعار "إنكلاي يا منصور"، فقام "القائد الموفق" بإعدام "إنكلاي" وجماعة معه ثَبُتَتْ محاولتهم الهروب من السجن، واتصالهم بالتمرد الجديد. وأعطى الأمان للعديد من المقربين من صاحب الزنج، وأغدق عليهم الأرزاق.

الإحـالات

[1]. الزنج طائفة من عبيد إفريقيا، كلفوا بالأعمال الشاقة دون أن يتقاضوا أي أجر سوى قليل من التمر والدقيق والسويق (الحبوب) ليقتاتوا به. وكانوا يكسحون المستنقعات قرب البصرة، ويعملون في أراضي سواد العراق (الغرينية). أنظر: عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط3، 1995، ص 19.

[2]. عند هجومه على البصرة سنة 257هـ، لم يقتل أحدا من العلوية الذين جاؤوا إليه وسألوه عن نسبه، فانتسب لهم زورا بآل البيت. وحين استغاثت به امرأة من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب ليعتقها مما فيه، قال لها: هو مولاك وأولى بك من غيره. أنظر: أبو الحسن بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 4، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، 1982، ص 246.

[3]. ابن أبي سرور، كتاب بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء، تقديم محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، الإسكندرية، (د ت)، ص 126.

[4]. محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العالمية، بيروت،1407هـ، ج 7، ص 543

[5]. فار فاروق عمر، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، دراسات نقدية في تفسير التاريخ، دار اقرأ، بيروت، ط2، 1985، ص 76.

[6]. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار العلمية، بيروت، 1995، ج 7، ص. ص 111- 140.

[7]. الطبري، مصدر سابق، ج 9، ص ،414

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

[8]. ابن الأثير، مصدر سابق، ص ص 111- 140.
[9]. كان يدرس التنجيم وما يتصل به من التنبؤ وهذا ما جعله يخدع جماعته بأخبارهم بمعرفة وقت الكسوف فيصدقونه، وأنه يعرف ما لا يعرفون هم فيزداد انبهارهم أنظر: الطبري، ج3، مصدر سابق، ص 1848.
[10]. حنا الفاخوري، الموجز في الأدب العربي وتاريخه، الأدب في الأندلس والمغرب، أدب الانحطاط، مج 3، دار الجيل، بيروت، (د س)، ص 234.
[11]. علي حسني الخربوطلي، مرجع سابق، ص. ص 182-183.
[12]. المرجع نفسه، ص 184
[13]. فاروق عمر، مرجع سابق، ص 404.
[14]. سورة التوبة، الآية 111. وهذا شعار الخوارج الأزارقة، أنظر: خالد عزام، موسوعة التاريخ الإسلامي . العصر العباسي، دار أسامة، عمان، 2006، ص 173.
[15]. علي حسني الخربوطلي، مرجع سابق. ص 184
[16]. سورة الحجرات، الآية 10
[17]. حديث شريف.
[18]. حنا الفاخوري، مرجع سابق، ص 237
[19]. المرجع نفسه، ص 184.
[20]. المسعودي، مصدر سابق، ص 135.
[21]. فاروق عمر، مرجع سابق، ص 404
[22]. الطبري، مصدر سابق، مج 3، ص .199
[23]. المصدر نفسه، ص 224.
[24]. تاريخ الخلفاء ص 242.
[25]. الطبري، مصدر سابق، مج 3، ص .992
[26]. أحمد علبي، ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، دار الفرابي، بيروت، 1991، ص 10.
[27]. الطبري، مصدر سابق، مج 3، ص 2130.
[28]. حسن إبراهيم حسن وآخرون، مرجع سابق، ص 218.
[29]. ياسر جاسم قاسم، ثورة الزنج والتأسيس النظري لها وواقعها العملي، أرشيف المجلات الأدبية والثقافية العربية، قاموس صخر الجديد، ع 2، 01 أبريل 2009.
[30]. بن الجوزي، مصدر سابق، مج 5، ص 8.
[31]. الطبري، مصدر سابق، مج 3، الثالث، ص 1757.
[32]. المصدر نفسه، ص 1758.
[33]. المسعودي، مج 4، مصدر سابق، ص 285.
[34]. المصدر نفسه، ص 383

E-ISSN : 2571-9742
P- ISSN: 1112-945X
DM

[35]. المصدر نفسه، ص 384

[36]. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط14، 1996، ج3، ص 218. وأيضا: محمد شكيران، شيرين حمودي، عمار النهار، تاريخ الدولة العربية في العصر العباسي الثاني، جامعة البعث، 2017، ص 46.

[37]. غالبا ما يقود ثورات وانتفاضات المسحوقين ناس من خارجهم، ويعود السبب في ذلك إلى وانتظار الضعيف الفرصة للغلبة على القوي، وانعدام الفرص لظهور قيادات بين المسحوقين، وتوفرها للطبقات المالكة للثروة. أنظر: هادي العلوي، شخصيات غير قلقة في الإسلام، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1995، ص ص 214 215.

[38]. من أجل تحقيق مصالح خاصة، وإثارة الفوضى في الدولة العباسية. أنظر: أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، جامعة دمشق، ط4، 1997، ص 246. وعند دخول المسلمين مدينة المختارة عاصمة الزنج (269هـ/882م)، أصاب القائد "موفق" سهم من يد أحد جنود صاحب الزنج، وهو رومي يدعى "قرطاس"، وهنا نتساءل عند دور الروم في محاولة قتل هذا القائد، ومحاولة إضعاف الدولة العباسية وإلهائها عن مجابهتهم. أنظر: أبو عبد الله محمد الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح: أبو هاجر محمد بن السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت، 1985، ج1، ص 387.

[39]. المصدر نفسه، ص484

[40]. المسعودي، مصدر سابق، مج 4، ص 135.

[41]. المصدر نفسه، ص 166

[42]. ابن محمد شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج 25، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1423 هـ، ص 152

[43]. فيصل السامر، ثورة الزنج، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1971، بيروت.

[44]. جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط2، 1434هـ- 2013 م، 265.

[45]. محمد عمارة، مسلمون ثوار، دار الشروق، القاهرة، ط3، 1988، ص 197.